دار وحبيب...!

للأستاذ محمد سعيد العريان

يا دار، ليتني ضللت إليك الطريق . . . !

منذ سنوات وسنوات، كنتِ مَغْداىَ ومَراحي، وكنت سعادتي وأنسي، وكنتِ دنياي الصغرى؛ تلتقي عندكِ أمانيُّ الشباب، وتستيقظ فيكِ أحلام الهوى!

فأين يومك من أمسك يا دار؟

أما يومك — وا أسفاه — فهذا الذي أرى: كومة من أحجار، إلا جداراً يريد أن ينقضّ! وأما أمس.. هل تذكرين يا دار . . . ؟

أينَ، أين ألقى أهلكِ الذين ابتعدتْ خُطاهم على الأيام؛ وأيانَ، أيان تعود لياليك التي طواها الزمان؟

هنا ... منذ سنوات وسنوات ... أودعتُ قلبي الى ملتقى موعود؛ فأين منكِ الوديعةُ يا دار؟

ما أظن الأيام على سلطانها بقادرة على أن تهدم ذكراكِ في نفسي!

* * *

ومضيتُ أتخطّى الأنقاض وهي تئن من تحتي أنين الواجد، حتى انتهيتُ إلى الهيكل المستباح!

يالله! كلُّ شيء حيٌّ في هذا المكان. إني لأسمع همس الذكرى يُرجَّع في مسمعيّ حديث الماضي؛ وإني لأرى أطياف الحب ترفُّ رفيفَ الحياة؛ وإني لأشمُّ من حولي عبير اللقاء يتخطّى بي الزمانَ والمكان؛ وإني لأراها هي أمامي، كأوّل عهدنا يوم التقينا، فتعارفنا، فأسرَّتْ وأسررتُ النجوى!

مرحبا بكِ يا فتاة! يا لعينيكِ الساحرتين! ما لأهدابك تختلج كأنما تغالبين النعاس؛ ومالك صامتةً لا تنبسين كأننا غريبان في هذا المكان؟ ماذا؛ مالكِ معرضةً منكسرة. . . ؟

انني أنا هو يا فتاتي كعهدكِ يوم افترقنا على ميعاد . . .

ردّي عليّ لياليّ، وصِلي يومَنا بماضينا . . .

لقد ابتعدتْ عني بلا وداع. شدّ ما تسخر منا الأماني!

* * *

وبدا لي من خلال الدموع شبح يقترب بين الأنقاض . . . ذاك شيخ يدبّ على عكازة لوّحتها السنون . . . يعلو حجراً ويهبط عن حجر؛ فدنا مني وقد تقلصت شفتاه عن مثل الابتسامة، أي منظرٍ موحش . . . ؟

قلت: «مَن تكون أيها الشيخ ومالي بك عهد؟»

قال: «أنا ... ؟ ما أشدّ حماقة الفتيان! أنا الزمان ... ! وإنما لي أن أسألك: ماذا تنشد بين هذه الأنقاض؟»

قلت: «في هذا المكان، أودعتُ شيئاً عزيزاً عليّ، إنه قلبي؛ أفتدري أيها الشيخ أين ألقاه؟»

هنا، في هذا المكان، كان لي أهل وأحبّة، وكان قلبي لديهم وديعة، إن الدار لتشهد؛ فاني لأنشد هنا قلبي وشبابي وحبي . . . !»

قال: «ويحك يامسكين! أتسألني؟ أتسأل الزمانَ أن يردّ عليك مافات . . . ؟ إنك يابنيّ تؤمن بالحب، فاسأل الحبّ — إن أجاب — أن يردّ عليك ما استودعته . . . ! ما الحبّ يابنيّ إلا خرافة؛ هل هو إلا أرقٌ يراوح بين جنبيك، ودموعٌ تقرّح بين جفنيك، وانتظار يستلب شبابك من عمرك، وحنينٌ يسترقُ يومك من تاريخك، وغيرةٌ تسلبك الطمأنينةَ والقرار، وشكٌّ ينبت في صدرك الشوك؛ وهل هو من بعدُ إلا الندمُ واللهفة والذكرى؟ أفرأيتَ شيئاً من ذلك يعدل ساعةً من ساعات الشباب، أو يردّ عليك سعادةً من سعادات الماضي ...؟ هيهات يابنيّ هيهات . . . !»

ومضى الشيخ على وجهه، وإن في صدره لسراً . . . !

* * *

وعدوتُ في أثر الزمان أجاذبه السرّ؛ فما بلغتُ اليه نفسي وغاب في جوف الظلام. ورجعتُ منكسراً لهفان، أنهنه أدمعي وأغالب نفسي

وإذا على الطريق شابٌّ يبتسم

قال: «مرحباً بك ياصديقي؛ أراك على حيد الطريق فأين أزمعت المسير؟»

قلت: «أتراك تعرفني يا فتى؛ فمن تكون؟»

قال : « أنا . . . ؟ ما أعجب أن تنسى ! أنا رفيق صباك ، وأنيس أحلامك ؛ أنا الأمل . . . ! فما أشد أن ينكرني الشباب ! »

قلت : « معذرةً إليك يا أملي ، وإنما صرفني عن ذكرك هذاك الزمان ! »

قال : « الزمان . . . ؟ ويحك ! وأين منك الزمان وما تزال في يديك أيامك ؟ ألا إن الشباب ليصنع بيديه أيامه ، ويخط بيديه تاريخه ، ويُعلي على الزمان مشيئته . . . ! ألا إن هذا الشيخ الخرِفَ الذي تسميه الزمانَ لعاجزٌ أن ينالك ومعك الشباب والأمل ! »

قلت : « فإنني أفتقد شيئاً هنا . . . في هذا المكان . . . كان لي أهلٌ وأحبة ، أودعتهم قلبي إلى ملتقىً موعود ؛ فهذه الدار خلاء كما ترى ، إلا أنقاضاً ركمها الزمانُ حجراً على حجر ؛ أفتدلني أين أجد أحبابي وقلبي ؟ »

قال : « لك الله ولأحبابك ! أحسبتَ أنك وحدك الوفيّ الذاكر ؟ إن فناءك ما تزال هناك تنتظر ، وإن الوديعة الغالية ما تزال في الحرز الأمين ! »

قلت : « فما هذه التي تراءت لي هنا ثم تولت معرضة لم تنبس ؟ »

قال : « ويحك ! ألم تفهم مقالة عينيها وأهدابها تختلج ؟ إنها تقول : اتبعني يا حبيبي . . . ! »

قلت : « أفتراها مستطيعةً أن ترد عليّ أيامي ، وقد تولى الزمان وحال المكان ؟ »

قال : « إن الحب لا يعرف الزمان ولا يحدّه المكان ، إنه لشيء من غير دنيانا ، لا يخضع لنواميس هذه الحياة ؛ إن العاشق ليذكر على البعاد من يحب ، فإذا الماضي كله بين يديه ، وإذا الذي يهواه تحت ذراعه ؛ وإنهما لاثنان هنا : هو وخيالُ من يحب ؛ واثنان هناك : هي وطيفُ من تهوى . أفرأيتَ الزمانَ والمكانَ ساعتئذ قد استطاعا أن يحولا دون هذا اللقاء ؛ أو رأيتَ شيئاً غيرَ الحب يجمل الاثنين أربعةً في زمان ومكان . . . . ؟

« ألم تفهم مقالة عينيها وأهدابها تختلج ؟ إنها تقول : اتبعني يا حبيبي . . . . ! »

* * *

ولمحتُ زهرةً ترفّ رفيفَها في ظلّ جدار قائم ، وهي تناجي أختها نجوى الحزين الى الحزين ؛ كانتا وحدهما في هذا المكان رمزَ الحياة بين رموز الموت من تلك الصخور المجدّلة . وإن للأحجار والجماد لحياةً كحياة الناس وموتاً كالذي ماتوا ، إن البيت الآهلَ حيٌّ بسكانه ما عمروه ، فإذا احتملوا وهجروه فما هو حينئذٍ بيتاً حياً وإن بقيتْ له معالمه وأبوابه ، ومفاتحه وأقفاله ، وإن في التراب يغطي أرضه وجدرانه لمعنًى من معاني القبر !

ودنوت أستمع الى نجوى الزهرتين :

قالت إحداهما لجارتها : « ويلي — يا أختاه — من المقام بين تلك الأنقاض الميّتة ! ما أكاد أشعر أنني زهرة ذات روح وعبير . لماذا تمتّعني الأرض وزيّنتني بألوان الربيع إذا كنت لا أرى العين التي تتملّى حسني معجبةً شهوى ؛ ولماذا أنا زهرة إذا انقضت حياتي على وتيرتها بين هذه الأنقاض ؛ لا يَشمّ عبيري أحد ، ولا تتناولني يدٌ رفيقة . . . ؟ »

قالت أختها : « فانك لتبطرين النعمة ! وإنك في مقامك هنا لأسعدُ من أخواتٍ لك هناك في الروض ؛ ما تكاد تتفتّح عنهن الأكمام حتى تتناولهن الأيدي ؛ فيوماً في الحرير على الصدر ، ويوماً في زهريّة على المائدة ؛ ثم هي بعد مع الزبالة تطؤها النعال . . . ! »

قالت : « وهل أنا زهرة إلا أن أكون عطراً يُستنشى وجمالاً يُشتهى ؛ ويوماً على صدر ، ويوماً في زهرية ؟ ألا إن يوماً واحداً هناك يُشعرني جمالي — لخير من أيام هنا على هذا الغصن الشائك ، ما ينفك يخزني كلما مالت به النسمات ! ألا إنما السعادة قلب وابتسامة ، وإنما الحياة أن أكون شيئاً في الحياة ! »

وهبّت نسمة عاتية ، فإذا الزهرة ورقاتٌ منثورة على التراب . . . !

يا ويلتا ! حتى هذه الأشياء تنشد الحب ، وتستوحش من الوحدة والخراب . . . !

أيتها الزهرة التي انتثرت غضةً عبقة لم تنعم بالحب ؛ كم من قلوب بشرية كقلبك ؛ انتثرت أحلامُها بدداً على أنقاض اليأس والحرمان ، قبل أن تستنشق عطرَ الحب ، أو تذوقَ لذة المنى . . . !

عزاءً لكِ ولي . . . ؟

طنطا

محمد سعيد العريان